﴿يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: 11 - 14]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تـركُ الحميمِ سؤالَ حميمه في الآخـرة؛ لـلـتَّـشـاغُـل بـأهـوالِـهـا لا لِغيابه عنهُ

لمّا كان من الوارد احتمالُ عدَمِ سُؤالِ الحميم حَميمَه لعدَمِ رُؤيَة بعضِهم بعضًا لكثرةِ الجَمْعِ، وشِدّة الزِّحام، وتَفرُّق النّاس فيه على حسَبِ مَراتِبِ أعمالِهم؛ استأنف النَّظمُ الكريمُ الجوابَ عَنْ سؤال محتمَلٍ حاصِلُهُ: لعلَّ ذلك يُترك لعَدَمِ رُؤيَتِهم لَهُم؟ فقال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْۚ﴾ أي: يُبَصِّرُهُم مُبَصِّرٌ؛ فلا يخفى أحدٌ على أحدٍ وإن بَعُد مكانُه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُبَصَّرُونَهُمْۚ﴾: (بصر) تدور أكثَرُ تَصاريفِها على مَعْنى العِلْم بالشَّيءِ[2]. والبَصَر يُقال للجارحة النّاظرة، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النّحل: 77]، وللقوّة الّتي فيها، ويقال لِقوَّةِ القلب المدرِكة: بَصيرَة وبَصَر، نَحو قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: 22]، وقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النّجم: 17]، وجمْع البصر: أبْصار، وجمع البصيرة: بَصائِر، قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [الأحقاف: 26]، ولا يكاد يقال للجارحة بصيرَةٌ، ويقال من الأوّل: أبصرتُ، ومن الثّاني: أبصرتُه وبَصُرْتُ به، وقلّما يُقال بَصُرْت في الحاسَّة؛ إذا لم تُضامّه رؤيةُ القلب.

ويصحّ أن يُستعار الاسْتِبْصار للإبْصار، نحو استعارة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 395.

الاستجابة للإجابةِ. وقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يُجْعَلون بُصَراءَ بآثارهم[1].

2) ﴿يَوَدُّ﴾: الوُدُّ: محبّة الشَّيء[2]، وتمنّي وجودِه وحصولِه، ويُستعمل في كلّ واحدٍ من المعنيين؛ على أنَّ التّمنّيَ يتضمّن معنى الودّ؛ لأنّ التّمنّي هو تَشَهِّي حصول ما تَوَدُّهُ، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرّوم: 21]، وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: 96]؛ إشارةٌ إلى ما أوقَعَ بينَهُم مِنَ الألفة المذكورة في قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: 63].

ومِنَ المودّة الّتي تقتضي معنى التّمنّي: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: 69]، وقال: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: 2]، وقال: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾[3]. فقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: يتمنّى لو يَقْدِرُ على ذلك، ولا ينفعُه حينئذٍ التّمنّي.

3) ﴿يَفْتَدِى﴾: (فدى) تدور اشتقاقاتُها على أصلين متباينَيْن؛ أحدهما: أن يُجعَل شيءٌ مكانَ شيءٍ حِمًى له، والآخر: شيءٌ من الطَّعام. فالأوَّلُ قولك: فديتُه أفديه، كأنَّك تَحميه بنفسك أو بشيء يُعَوِّضُ عنه. ومِنْهُ: الفديةُ؛ وهو ما يقي به الإنسانُ نفسَهُ مِن مالٍ يَبْذُلُه في عبادةٍ قَصَّر فيها[4]. والآخر: الفَداءُ - ممدودٌ -؛ وهو مِسْطَحُ التَّمْر، ويُطلق على جماعةِ الطَّعام مِن الشَّعير والتَّمر ونحوها[5]. وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ أي: يتمَنّى لو يَحْمي نفسَهُ بعِوَض يدفعُهُ هو هؤلاء جميعًا.

4) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾: (صحب) تدلُّ تصريفاتُها على مُقارنَةِ الشَّيء ومُقاربَتِه[6]، يقال: أصْحَبَ الماءُ؛ أي: علاه الطُّحْلبُ. وأديمٌ مَصْحوبٌ ومُصْحِبٌ: عليه صوفُه أو شعرُه أو وبَرُه. وعود مصحوبٌ ومُصْحَب: تُرِك لحاؤُه ولم يُقشَّر. والأصل في الصُّحبة: الملازمةُ، ثُمَّ قد

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (بصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ود).
(3) الراغب، المفردات: (ود).
(4) الراغب، المفردات: (فدى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فدى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).

تُسْتَعْمَل في مجرَّد الاقتران. ومن الملازمة مدَّةَ الحياةِ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]، وقوله تعالى: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ أي: زوجته، وكذا كلُّ استعمالها في (صاحِبَة). والأخوّة رباطٌ قد يَخْلو من اللُّصوق[1].

5) ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾: (فصل) تدلُّ تصريفاتُها على تمييزِ شيءٍ من شيءٍ وإبانتِهِ عَنْه[2]، ومِنْهُ: المَفْصِل؛ وهو كُلّ مُلْتَقَى عَظْمين من الجَسَد. والفَصْل: موضِعُه. وتَفْصيل الجَزور: تَعْضيَتُه. والفاصلَةُ: الخَرَزَة التي تفصِل بين اللُّؤلؤتَيْن أو نحوهما في النِّظام. والفصلُ: تميُّز الشَّيء عن غيره مع تمام أو ما هو من بابه، كتميّز كلٍّ من عُضْوَي المَفْصِل، وكلٍّ من أعضاء الجَزور، وتفصيلُ الشَّيء: تبيينُه وجَعْله فُصولًا متمايزةً؛ تمييزَ أجزائهِ وتوضيحَ جزئيّاته، ويُقال: فَصَل بين الخصمين؛ أي: حَكَم، فميّز بينَ المحقِّ والمبطل.

وفصيلةُ الرَّجل: عشيرتُه ورهطُه الأدنَوْن؛ أقربُ آبائه إليه، كالعبّاس ﷺ، يقال له: فصيلةُ النَّبيِّ ﷺ، والمقصود بالفصيلة: القِسْم من القبيلة الّذي ينتمي إليه الشَّخص أقربَ انتماء، ولذا وصَف القرآنُ الفصيلةَ بالإيواء: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾[3] أي: قبيلته تُقَرِّبُه وتحتَضِنُه.

6) ﴿تُـْٔوِيهِ﴾: (أوي) تدلُّ اشتقاقاتُها على معنَيَيْنِ كُلّيَّيْن؛ أحدُهما: التَّجمُّعُ، والآخر: الإشفاقُ. والمَأْوى: مصدرُ أوَى يَأْوي أويًّا ومَأْوًى، تقول: أوى إلى كذا؛ إذا انضمّ إليه. وآواهُ غيرُه يُؤْويه إيواءً. قال اللهُ ﷻ: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: 10]، وقال سُبحانَهُ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ [هود: 43]، وقال تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: 69]، وقال: ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: 51]، وقال سبحانَهُ تعالى: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النّجم: 15]، وقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾[4]؛ أي: عَشيرَتِه الأقربينَ الذين يضُمّونَهُ في النَّسب أو عندَ الشَّدائد ويأوي إليهِمْ[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صحب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فصل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فصل).
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (أوى).
(5) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 314.

7) ﴿يُنجِيهِ﴾: (نجى) تدور اشْتِقاقاتُها على الانفصالِ مِنَ الشَّيءِ[1]، ونَجْوَتا الوادي - بالفتح -: سَنَداه جميعًا مُسْتَقيمًا ومُسْتَلْقيًا، كلُّ سَنَد نَجْوةٌ. والنَّجْوة والنَّجاةُ: ما ارتفع من الأرضِ، فلم يَعْلُه السَّيل.

والنَّجاء: السُّرعةُ من خطَرٍ؛ أي: نفاذٌ بقوَّة خلالَ مسافةٍ وخلوصٌ، والخلاصُ من الشَّيء؛ فهو خلوصٌ بصعوبة، والصّعوبة ثِقَل فهي من الكثافة، قال تعالى: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥﴾ [القصص: 25]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: 64]. وكلُّ ما في القرآن من هذا التَّركيب؛ فهو بمعنى الخُلوص مِن خطَرٍ مُحْدِقٍ أو عذابٍ أو غرَقٍ أو كرْبٍ، ونحو ذلك، ممّا عدا صيغَتَيْ (ناجَى) و(تَناجى)، وكلّ (نجيّ) و(نجوَى) فهُنَّ مِن معنى المُسارّة، وهي مِن خُلوص المتناجينَ بعضِهم إلى بعضٍ دون الآخرين. أو اختصاص المناجَى، وهو يعدّ استخلاصًا له من بين الآخرين[2]. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي: ثُمَّ يخلِّصه من العذاب.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُرَى كلُّ حميمٍ حميمَه في الآخرة، ويُعَرَّف به؛ فلا يَهتمُّ لأمرِهِ لِشدّة ما هُم فيه جميعًا مِن أهوال، وحينَئِذٍ يودُّ الكافرُ المُجْرِمُ، ويتمَنّى أنّ لَو استطاعَ افْتِداءَ نفسِه من عذابِ يوم القيامةِ ببَنيه، وزَوْجَته الّتي صاحَبَتْهُ في الدُّنيا وخالطَتْه وخالَصَتْه، وبأخيه الّذي عاضدَه، وقبيلَتِه الّتي حامَتْ عنه وذادتْ، وكلِّ مَن كان يعرف في الدُّنيا، بل وأن يقدِّم فداءً لنَفسه الثَّقلين جميعًا، وكلَّ ما في الأرض مِن ثَرَوات؛ ثُمَّ لعلَّ ذلك - لو استطاعه - يُقبل منه، فينجو ويَسْلَم من تلك الأهوالِ.

فظاعةُ عذاب يومِ القيامة تُهَوِّن على المُجْرِم تقديمَ كلِّ غالٍ ونفيسٍ فداءً لنفسِه

(1) الراغب، المفردات: (نجو).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نجو).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة فصلِ قولِهِ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ عمّا قبلَهُ:

فُصلَ قول الله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ عمّا قبلهُ؛ لما بينَهما من شبْهِ كمال الاتِّصالِ، فالجملةُ الثّانيةُ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فهي تُجيب عن سؤالِ سائلٍ متوقَّعٍ، حاصِلُهُ: لماذا لا يَسأل حميمٌ حميمًا؟ ألجَهْلِهِم بهِم يومئذٍ؟ أم لأنَّهم لا يَلقونهم في الزِّحام؟ أم لأسبابٍ أخرى لا نَعْلَمُها؟ فجاءَ الجوابُ كاشفًا عن أنَّ هولَ الموقف يَطغى على الجميع فيَنْشَغِلُ بهُمومِه، على الرُّغم مِنْ أنَّ أهله الأقربين أمامه، يَراهُم ويَعْرِفُهم بتعريف الله تعالى إيّاه؛ فليس إهمالُهم شأنَ أحْمائِهِم عدمَ بَصَرِهِم بهم حينئذٍ.

كلُّ حبيبٍ يَرى حبيبَهُ يومَ القيامَةِ ولا يوليهِ اهْتِمامًا؛ لِفرْطِ انْشِغالِهِ بنَفْسِه

ويجوز أن تكون قد فُصِلت جملة ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾؛ لكونها "صفةً؛ أي: ﴿حَمِيمًا﴾ مبصَّرين معرَّفين إيّاهم"[1]، ولا تُعْطَف الصِّفة على الموصوفِ لنزولها منها منزلةَ نفسِها؛ إذ هي نفسُها في المعنى.

دلالة التَّعبير بالتَّبصير في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾:

التَّبصير في قول الله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يعني التَّعريف والمشاهدةَ؛ أي: يُعَرَّفونَهُم، ويَرَوْنَهُم، فيُعَرَّف الحميمُ حميمَه حتّى يَعْرِفه، ومع ذلك لا يَسأل عن شأنِه؛ لِشُغله بنفسه[2]، فيُشاهدونهم[3]، ولا يَخْفى منهم أحَدٌ على أحَدٍ، وليس في القيامةِ مخلوقٌ إلّا وهو نُصْبَ عينِ صاحبِه، ولا يتساءَلون ولا يُكَلِّم بعضُهُم بعضًا؛ لاشتغال كلِّ أحدٍ منهُم بنَفْسِه[4].

في الآخرة لا ينفَعُ المرءَ إلّا إيمانُه الصّادق وعمله الصّالح

ويحتمل أن يُعَرَّف بعضُهم بعضًا؛ أنَّ هذا أبوك وابنُك وحميمك؛

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 537.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 352.
(3) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 242.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 347.

إذْ لا يعرِفُه إلّا بالتَّعريف؛ لِما حلَّ به من شدَّة الهَوْلِ والفزَع[1]، وعن السُّدّيِّ أنَّهم يُعَرَّفونهم؛ أمّا المؤمن فبِبَياض وجهِه، وأمّا الكافر فبِسوادِ وجهه[2].

ووراء التَّعبير بمفردة التَّبصير دلالةٌ على انْكِشافِ الحقائِقِ، وبَصَرِ كلِّ حميم بمكانتِهِ الحقيقيَّة مِن حميمه، وأنَّ عافيةَ الحَميميّة صارت مزريَةً بينَهُم، وحينئذٍ لا ينفع المرءَ إلّا إيمانُه الصّادق وعمله الصّالح.

يتضاعَفُ حُزْنُ الكافِرِ حين يرى حبيبَهُ يومَ القيامة يُعذَّب ولا يَمْلِكُ له نُصرة

وضمير الرَّفع (الواو) وضميرُ النَّصب (الهاء) في ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يعودان إلى ﴿حَمِيمٌ﴾ و﴿حَمِيمًا﴾؛ لأنَّ كلّا منهما في معنى الجمع وإن كان في اللَّفْظِ مُفْرَدًا؛ لأنَّه نكرةٌ تفيد الاستغراقَ في سياقِ النَّفي، والتَّقدير: أنَّه لا يَسأل الأصدقاءُ أصدقاءَهم؛ لأنّ كلّا مِن طَرَفَي التَّساؤل على حالٍ واحدة من الوُجوم والاشتغال بالنَّفس عن غيرِهم، فالجميع في هذا اليوم على حدٍّ سواء فيما يُذهِلُهم من هموم، فلا سائلَ ولا مسؤولَ[3].

ولَفَت ابنُ عاشور إلى لطيفةٍ وراء هذا التَّبصير؛ فقال: "يُكشف لهم عنهم ليروا ما هم فيه من العذابِ؛ فيَزْدادوا عذابًا فوق العذاب"[4]. فما أشدّ أن يرى الرَّجلُ أصلَ وجودِهِ أو فلذة كبدِه أو حبيبة روحِه يُعذَّبُ؛ ولا يملك لَهُ نُصرَةً!.

بيانُ مرجِعِ الضَّميرين في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾:

ثـراءُ المعاني ووَفْرَتُها بتعدُّد مرجِعِ الضَّمائر

تعدَّدت أقوال العلماء في المبصَّرين والمبصَّرين بهم في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ إلى أربعة أقوال؛ فمنها: أنّ الأقْرِباء يُعَرَّفون أقْرباءَهم، ويُعَرَّفُ كُلُّ إنسانٍ قريبَه، فذلك تَبْصيرُ اللّهِ تعالى إيّاهم؛ يُعَرَّفُ بعضُهم بعضًا، ويَتَعارَفون بينَهم، ثم يَفِرُّ بعضُهم مِن بعضٍ،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 201.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 14.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1161.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 160.

كما قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: 37]، وذكر الطبريُّ أنَّ هذا أولى الأقوال بالصِّحّة. ومِنْها: أنَّ المؤمنين يُبَصَّرون الكافرين، أو أنّ الكفّار يُبَصَّرون الّذين أضَلّوهم في الدُّنيا في النّارِ[1]، أو يبصَّر المظلومُ ظالمَه، والمقتولُ قاتِلَه[2].

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ يَرْجِعُ إلى الملائكَةِ؛ أي: يُعَرَّفون أحوالَ النّاس لا يَخْفَوْنَ عليهم[3]، أو يكون معناه: أن يُبَصَّروا ما سبَقَ مِنْهُم من الذُّنوب والجرائم فيَعْرِفونَها، وتصير لهم حاضِرَة[4]. وهذا القولُ فيه بُعْدٌ؛ لأنَّ ضمير (هم) في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ للعقلاءِ، وما تقدَّم منهُم مِن الذُّنوب والإجرام ليس كذلكَ.

دلالةُ الفعلِ المضارِعِ في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾:

في التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ استحضارٌ لتلك الأحداث، فتُقيمُها حيَّةً في تَصوُّر المتَلَقّي؛ فتمور بتلك الصّورةِ الأليمة نفسُه، وينفَعِلُ لها عقلُه، وذلك من شأنه مراجعَةُ النَّفس ومناقشة العقل في قضيَّة الإيمان، والأخذ بهما إلى سُلوك سبيل النَّجاة، فينتهي الكافرُ عَنِ الاستهزاءِ بعذابِ اللّه تعالى، ويسارع إلى اعْتِناقِ دينِه الحقِّ، والانضمام إلى رَكْبِ الإيمانِ معَ الأبرار الأطهارِ.

استِحضارُ مشاهدِ الآخرة الأليمةِ في تصوّر الإنسانِ يَهُزُّه من الأعماقِ

دلالة إسنادِ الفِعْلِ (يُبَصَّرُ) إلى مفعوله:

في إسناد فِعْلِ التَّبصير لغير فاعلِه، وبِنائه إلى ضمير المفعولِ الأوَّل في قول اللّه تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تلك التَّبصرة تكون حينئذٍ ذاتيَّةَ المَنْبَعِ، أصيلَةَ القناعَة، لا تحتاج إلى جُهْدٍ للتَّصديق بها بخلافها في الدُّنيا.

الكافر في الآخرة لا يحتاج إلى إقناعٍ ليُصَدّق، بخلافِهِ في الدُّنيا

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 257.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 92.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 347.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 202.

وفي الفعل ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ ما ليس في الفعل (يُبْصِرونَهُمْ)؛ وذلك لأنّ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يفيد أنَّ أهل الموقف - لِما هم فيه مِن بلاء - لا يكادون يُبصِرون شيئًا، ولكنْ كأنَّ قوَّةً خارجة عنهم تَحملهم حملًا على أنْ يفتحوا أعيُنَهُم على هذا المكروه الّذي يُحيط بهم، ويهجُم عليهم، وأنَّ قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يُفيدُ أنَّ المبصَّرين والمبصَّرين بهم على حدٍّ سواء، فكلٌّ منهم يُبْصِر ويُبْصَر، في حالٍ مِن الفزع والهلع، لا تدع لأيٍّ سبيلًا إلى الاختيار فيما ينظُرُ إليه[1].

لطيفةُ جَمْعِ ضميرَي الحَميمَيْنِ في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾:

وجَمْعُ ضميري الحميمَيْن في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ ناظرٌ إلى عمومِهما؛ لأنَّ المقصودَ ليس صَديقَيْن مَخْصوصَيْن، وإنَّما المقصودُ كلُّ صديقٍ معَ صديقِه[2]؛ وأُخِذ ذلك العمومُ مِن أنَّهما نكِرتان في سياق النَّفي[3]؛ فيعمّان كلَّ حَميمَيْن.

كـلُّ حـمـيـم في الآخـــرة يـرى حـمـيـمَـهُ، ولا يـولـيـه عـنـايَـةً لشِدّة الموقفِ

سرّ حذف الجارّ المُعَدَّى به الفعلُ في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾:

الفعل في قول الله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ مضارعُ بصَّرَهُ بالأمر؛ إذا جعلَهُ مُبْصِرًا له؛ أي: ناظرًا، فأصله: يُبَصَّرون بِهم، فوقعَ فيه حذفُ الجارِّ وتعدية الفعل[4] بنفسِه. ومن لطائف ذلك الحذفِ الإيحاءُ بقوة بَصرهم بهم، فيحكي حذفُ الجارّ (الباء) مدى القُرب المكانيِّ بين كلِّ حميمَيْن يومئذ، حتّى لكأنَّهما مُلْتَصِقان بلا فاصِلٍ مادّيٍّ يحولُ بينَهُما، ومع ذلك لا يتكلَّمان، ولا يَهُمّانِ بالتَّعاوُن على الخلاصِ ممّا هُما فيه؛ ممّا يدلُّ على هَوْلِ المَوْقِف وشدَّة المعاناة.

كلُّ حميمٍ قريبٌ مِنْ حَميمِهِ يومَ الـقـيـامَـةِ، ولا يتكلَّمان لِهَوْلِ المَوْقِفِ

غرَضُ الخَبَر في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾:

في الإخبار بتَبْصير كلِّ حميمٍ بِحَميمِه في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ "بيانٌ

شدَّةُ انْدِهاشِهِم ممّا نزَلَ بِهِم مِن هولِ الموقفِ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1161.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 96.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 347.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 160.

للحال الّتي يكون عليها النّاسُ يومَ القيامة، وأنَّ كلّ إنسانٍ مَشْغولٌ بِنَفْسِه، لا يسألُ عَن أحَدٍ، ولا يَسْأل عنه أحَدٌ، إن كان مِن النّاجين مَضَى إلى مرفَأِ النَّجاة، ناجيا بنَفْسِه، دون أن يَلْتَفِت إلى وراء، أو عن يمين أو شمال، وحسبُه أنَّه نجا. وإن كان مِن الهالكين؛ فحسبُه ما يُعاني مِن شدّة وبلاء: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: 37][1].

كذلك في هذا الخبر بيانُ أنَّه "ما يَمْنَعُهُم من المُساءلَةِ أنّ بعضَهُم لا يُبْصِر بعضًا، وإنَّما يَمْنَعُهُم التَّشاغُل"[2]؛ فـ "المانعُ مِن هذا السُّؤال هو الاندهاشُ ممّا نزَل، لا احتجاب بعضِهم مِن بعضٍ"[3].

بيانُ نتيجةِ عَظَمةِ يومِ القيامَةِ

علَّة فَصْلِ قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ عمّا قبلهُ:

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ عن قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾؛ لأنّ الثّانية المفصولةَ "حالٌ من ضميرَي الرَّفع والنَّصب في جُمْلَة ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾؛ أي: أنَّه يُبَصَّر بعضُهم بعضا، ويَكشِف بعضُهم حالَ بعض، في حالٍ يودّ فيها المجرِمُ لو يَفْتَدي مِن عذاب هذا اليوم ببَنيه..."[4]، والأصلُ في الحالِ أن لا تُعْطَفَ؛ لأنَّها بمنزلةِ الصِّفةِ مِنَ الموصوفِ، أو الخبرِ من المبتدأ.

أو فُصِل قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى﴾؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجملتينِ شبهُ كمال الاتِّصالِ؛ إذ إنَّهُ "لمّا تناهى الإخبارُ بعظمَةِ ذلك اليوم إلى حدٍّ لا تَحتَمِلُهُ القلوبُ؛ ذَكَر نتيجةَ ذلكَ، فقالَ مستأنفًا: ﴿يَوَدُّ﴾"[5].

عِظَمُ انْشِغالِ كُلِّ مُجْرِمٍ بِنَفْسِهِ يومَ القيامَةِ

دلالة التَّعبير بالودّ، ونُكْتَةُ صوغِهِ مُضارِعا في الفعلِ ﴿يَوَدُّ﴾:

﴿يَوَدُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى﴾ أي: يُحِبُّ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1161.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 609.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 318.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1162.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1162.

أو يتَمَنّى؛ إذ يُقالُ: ودَّ الأمرَ؛ أي: أحبَّه[1]، فالمعنى هنا أنَّ الكافر "يَتَمَنَّى أنه يَفْتَدي مِن عذابِ اللّهِ إيّاه ذلك اليومَ ببَنيه، وصاحبتِه – وهي زوجتُه –، وأخيه، وفَصيلتِه؛ وهم عَشيرتُه"[2]، وفي ذلك بيانٌ "أنَّ اشتغالَ كلِّ مجرم بنَفْسِه بلَغَ إلى حيثُ يتمَنّى أن يفتديَ بأقرَبِ النّاس إليه وأعْلَقِهم بقَلْبِه، فضلًا أن يَهْتَمَّ بحالِه ويسألَ عَنْها"[3].

وهذا البيان المرعب يُقَدَّم له هنا في الدُّنيا نُصحًا شفيقًا رفيقًا؛ لعله يتدارك نفسه فيكفّها عن الكفر، ويأخذ بيديها إلى الإيمان.

ويودُّ ذلك "إما بخاطر يخطر في نفسه عند رؤية العذاب، وإما بكلام يصدر منه نظير قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النبأ: 40] وهذا هو الظّاهر، أي يَصرخ الكافر يومئذ فيقول: أفتدي من العذاب ببنيّ وصاحبتي وفصيلتي، فيكون ذلك فضيحةً له يومئذ بين أهله"[4].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُ﴾:

الـكُـفـر إجـرامٌ كـبـيرٌ مكتمِلَةٌ خصائصُهُ

و(أل) في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ لبيان الجِنْسِ المُسْتَغرِق كُلَّ مُجرِم، "سواءٌ أكانَ كافرًا أو مسلمًا عاصيًا علم أنه يُعذَّب بعصيانه، وقُيِّد به لأنّ المسلمَ الطّائع يَشْفَعُ فيمَن أُذِن له فيه، ولا يَهُمُّه شيءٌ مِن ذلك"[5]، فالكافِرُ هو الأصلُ، وقد يَدخُلُ فيه المسلم العاصي تبعًا.

والمعنى: أنّ كلَّ مجرم يومئذ تبلُغُ منهُ النَّدامة، ويبلُغُ بهِ العذابُ حالًا عجيبَةً، ليس العجَبُ فيها مِن أنَّه يَقبل أو يوافِقُ على الافتداءِ بأهلِه الأدنَيْن، بل أن يتمنّى أن لو استطاعَ ذَلِكَ، ويَتَمَلّكه الحُزْنُ والنَّدَمُ على فَواتِه، وذلكَ كنايةٌ عن قسوة العذابِ يومئذ وفظاعَتِه.

(1) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (و د د).
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 606.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 31.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 160.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 395.

وتوحي (أل) في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ أيضًا بفَظاعَةِ الإجرام؛ فيتقرَّر بذلك ذُلُّه، وذهابُ عُتوِّه وظُلْمِه، وفقدانُه مُقَوِّماته، وانقلاب حاله؛ إلى حدٍّ يتَمَنّى فيه أن لو يَتَمَكّن مِن افتداءِ نَفْسِه بأبنائه وزوجِه وأهلِه وعشيرتِه أجمعينَ.

و﴿ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ في هذه الآية الكافر؛ بدليلِ شدّة الوعيد وذِكْرِ ﴿لَظَىٰ﴾، وقد يَدخل مجرم المعاصي فيما ذُكِرَ مِنَ الافتداءِ تبعًا[1].

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ دون (الكافر)، ودلالةُ صَوْغِه اسمَ فاعِلٍ:

الكفرُ إجرامٌ في حقّ النَّفس وفي حقِّ الله تعالى، وهو أعظَمُ صوَرِ الإجرامِ

في إيثارِ التَّعبير بالإجرام دونَ الكُفْرِ إيحاءٌ بأنَّ الكفر إجرامٌ في حقِّ النَّفس، كما هو إجرامٌ في حقِّ الله تعالى، وأنَّ الكفرَ أعظَمُ إجرامًا مِن كُلِّ جُرم، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: 48]؛ فدلّ على أنَّ الكُفْرَ أعظَمُ صوَرِ الإجرام، وأنَّ الكفّار جميعًا مجرمونَ.

كذلك يوحي إيثارُ التَّعبير بالإجرام بأنَّ الكُفْرَ يُجَرِّئُ على ارتكابِ صوَرِ الإجرام كُلِّها، فلا يَتَوَرَّع الكافرُ ممّا يتَوَرَّعُ منهُ المُؤْمِنُ، وأنَّ الإيمانَ يَمْنَعُ مِن أنواعِ الإجرام، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾ [الفرقان: 63].

معنى ﴿لَوۡ﴾ في قوله: ﴿لَوۡ يَفۡتَدِي﴾:

أماني الكافِرِ يومَ القيامة لا تَعْدو حـدودَ المُتَمَنّي النّادمِ

﴿لَوۡ﴾ في قول الله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾ "مصدريَّة، فما بعدها في حُكْم المفعول لـ ﴿يَوَدُّ﴾؛ أي: يودُّ الافتداءَ مِن العذابِ ببَنِيهِ ... إلى آخره"[2]، "فلا يكون لها جَوابٌ، ويَنْسَبِكُ منها وممّا بعدَها مصدَرٌ يقَعُ مفعولًا لـ ﴿يَوَدُّ﴾، والتَّقدير: يَوَدُّ افتداءَهُ ببَنِيهِ ... إلخ"[3].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 367.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 161.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 67.

وهي تَقطع باستحالةِ افتداءِ الكافرِ نفسَه أصلًا، وتدلّ على أنّ تحقيقَ هذه الوَدادَةِ مجرَّدُ تَمَنٍّ[1].

لطيفةُ إيثارِ التَّعبير بالمَصْدَرِ المؤوّل ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ على الصَّريح:

تَـتـراكـم عَـلى الـكـافـرِ يـومَ القيامةِ أسبابُ العذابِ الحسّيِّ والمعنويّ

أوثِر التَّعبيرُ بالمَصْدَرِ المؤوّل ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ على الصَّريح، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: يودُّ المُجْرِم الافتداءَ يومئذٍ ببَنيه ... إلى آخرِه؛ وفي ذلك إتاحَةٌ للتَّصريح بأداةِ التَّمنّي المُحيلة ﴿لَوْ﴾، وعطاءِ المُضارعة في ﴿يَفْتَدِى﴾ المفيدَة تجدُّدَ تلك الأمنية عندَ المُجْرِم، واستمرار تعلُّقِه بما لا يكون؛ فيترَتَّب عليها تجدُّد أسبابِ العذابِ النَّفْسيِّ المُذِلّ علاوةً على العذابِ الحسّيِّ المؤلِم.

دلالَةُ التَّعبير بالافْتِداء، ولطيفةُ صَوْغِه مُضارِعًا في الفعلِ ﴿يَفْتَدِى﴾:

تَـمـنّـي الـكـافِـرِ الافـتـداءَ بـأهـلِـهِ خِـسّـةٌ وانـحـطـاطٌ، أو ذهـولٌ عـن وجْـهِ الـصَّـواب في درجاتِ الافتداءِ

في التَّعْبير بالافتداءِ في قوله: ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ إشارةٌ إلى أنَّ إجرامَ المُجْرِم أفْقَدَهُ المعاني الإنسانيَّة - بل والمعانيَ الحيوانيَّة - النَّبيلة؛ إذ بلَغَ به الإجرامُ أن يتَمَنّى لو استطاعَ تقديمَ مُهْجَة نفسِه وفلذة كبدِه؛ وهم بنوهُ، بل ويبدأُ بهم تفريطًا فيهم اسْتِسْقاطًا للعذاب استنقاذًا لنفسِه؛ خِسّةً وانحطاطًا، أو ذهولًا عن وجهِ الصَّواب في درجاتِ الافتداء؛ لذلك تُعَدّ هذه الحالُ أقْوى كنايةً عَن شدَّة هولِ ما يَلْقاهُ يومئذ، والعياذ باللّه من حال أهلِ الكُفْرِ والإجرام.

معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ عَذَابِ﴾:

إيـجـازُ الـعِـبـارَةِ ووفْرَةُ الدّلالة

﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ حرفُ ابتداءٍ مجازيٌّ، وكأنَّه يَنْطَلِقُ في سبيلِ استنقاذِ نفسِه مِن العذاب من هُنالك؛ حيثُ يُقَدِّم بَنيه فِدْيَةً لنَفْسِه.

وتَعْدِيَةُ ﴿يَفْتَدِى﴾ بـ﴿مِنْ﴾ يُضَمِّنُه معنى الفعلِ (يتخلّص)[2] و(ينجو)، فالتَّعدية بـ﴿مِنْ﴾ تُحقِّق الإيجازَ في العبارة والغزارةَ في الدّلالة.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 396.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 161.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿عَذَابٍ﴾:

عـذابُ المُـجْـرِم يـومَ الـقـيـامـةِ متنوِّعَةٌ أصنافُهُ

العذابُ: الإيجاعُ الشّديد، وأصلُ التَّعْذيب: إكثارُ الضّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ؛ أي: طرفِها، وقال بعضُ أهل اللّغة: التَّعْذيبُ هو الضّربُ[1]؛ فتمنّي المجرم أنْ ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ تمنّي التَّخلُّص من الإيجاعِ المتنوّعِ، ضربًا بمَقامِعَ مِن حديد، أو حرقًا بِلَظى الجحيمِ، أو غير ذلك.

لطيفَةُ الإضافَةِ، وبيانُ إيجازِ الحذفِ في ﴿يَوْمِئِذٍ﴾:

إيـجـازُ الـعـبـارةِ تعجيلًا للفائِدَةِ المقْصودَةِ

التَّنوينُ في ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن جملةٍ، وهي تعودُ إلى قولِه قبلُ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾، فيكون في قوله: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ إيجازُ حذفٍ؛ حيثُ ضَغَطَت الجملتين في التَّنوين؛ تعجيلًا إلى مَكْمَنِ الكناية عن هولِ ذلك اليوم بافتداء المجرم ببَنيه... إلخ.

و(يومئذٍ) ظرفٌ مضافٌ إلى آخرَ؛ لإرادَةِ التَّخصيص؛ "وهو يوم تكونُ السَّماء كالمهل؛ فإن كان قولُه: يوم تكون السّماءُ متعلّقا بـ ﴿يَوَدُّ﴾؛ فقوله: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ تأكيدٌ لـ ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾، وإن كان متعلِّقا بقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ فقوله: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ إفادةٌ لكون ذلك اليوم هو يوم يوَدُّ المجرم لَو يفتدي من العذابِ بِمَن ذُكِرَ بعدَهُ"[2].

معنى (الباء) في القيد ﴿بِبَنِيهِ﴾:

تـقـديـمُ الأعِـزّاء بقَصْدِ الفداءِ

(الباء) في القيد ﴿بِبَنِيهِ﴾ باء العِوَض؛ حيث يتمَنّى المُجْرِم يومئذٍ أن لَو اسْتَطاع أن يُعَوِّض افتداءَهُ بعوضٍ غير متوقَّع وهو بنوهُ وصاحبتُه وأخوه وفصيلَتُه، ومَن في الأرض كُلّهم. والباء بعد مادَّة الفداء تَدْخُل على العِوَضِ المَبْذولِ[3].

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (عذب)، ص: 455.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 160.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 161.

بلاغة الكِناية في افتداء المُجْرِم بِبَنيهِ ومَنْ ذُكِر معَه:

في تَمَنّي المُجْرِم التَّمكُّنَ مِن افتداء نفسِه من عذابِ يومئذٍ ببنيهِ ومَن دونَهُم؛ أبينُ كنايةٍ عَن فظاعة ما يُعالِجُه الكافر يومئذٍ مِن صُنوفِ العَذاب وأهوالِه، وهو كنايةٌ عَن هَوْلِ المَوْقِف وقَسْوَةِ العذاب؛ إذْ لا أغْلى عندَ الإنسان ولا أعزَّ عليهِ مِن بنيهِ وصاحِبَتِه وأخيهِ وفَصيلَتِهِ.

فـظـاعَـةُ ما يُقاسيهِ الكافرُ مِـن أصـنـافِ العذابِ

دلالَةُ التَّرْتيبِ:

رُتِّبت المجروراتُ في قول الله تعالى: ﴿بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من بابِ التَّدَلّي من الأغْلى الأعْلى إلى الأدنى؛ بحسَبِ طَبائع الصِّلاتِ الرّوحيَّة، فالأبناء أعزّ، وبِهِم يُبْدَأ؛ إذِ النَّفسُ أعزُّ مِنْهُم، ثُمّ الصّاحبة، ثُمّ الأخ، وهكذا حتّى تُفْقَدَ الصِّلةُ بالنِّسبة لـ (مَن في الأرض) عمومًا.

أحـوالُ الآخِـرَةِ لا تُـقـاس على أحوالِ الدُّنْيا

و"بدَأ جلَّ ثناؤُه بذكرِ البنينَ، ثُمّ الصّاحبةِ، ثُمّ الأخِ، إعلامًا منه عبادَه أنَّ الكافرَ من عظيمِ ما يَنْزِلُ به يومَئذٍ مِن البلاءِ يَفْتَدي نفسَه - لو وجَد إلى ذلك سبيلًا - بأحبِّ النّاسِ إليه كانَ في الدُّنيا، وأقربِهم إليه نسبًا"[1].

ولعَبْدِ الكريم الخطيبِ مقالٌ بارِعٌ تحت تفسير هذه الآية الكريمة بعنوان: (مِن الإعجاز النَّفسيّ في القرآن)[2]؛ حاصِلُ ما قرَّرَهُ: أنَّهُ قَد يَبْدو غريبًا في ظاهِرِ الأمر أن يُقدّم الإنسانُ أوَّلَ ما يُقدم للفداءِ والتَّضحية أعزَّ شيءٍ لديهِ وهُم أبناؤُه، وقد كان المتوقَّع أن يَجْعَلَهم آخرَ سَهْمٍ يَرْمي بهِ في وجه هذا الهلاكِ الّذي يحتَويه! وهذا الحساب إنَّما يَجْري على هذا الوجهِ حينَ تكونُ الأمور على ما أَلِفَ النّاس، وحينَ يكون في الأمْرِ شيءٌ مِنَ السَّعة، ولو كان بِمِقْدارِ سَمِّ الخياط، أمّا والعذابُ هو عذابُ جهنَّم؛ فإنَّ المعابير تَختلّ والموازينَ

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 259.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1162 ملخَّصًا.

تضطربُ. فإنَّ أقربَ شيءٍ للإنسان في هذا الموقفِ هو دِرعه التي يتَّقي بها لَفْح العذاب، ولو كان هذا الشَّيء عضوا من أعضائه! ولكن انظر حين يكون في الأمر شيءٌ مِن السَّعة، وحين يكون الإنسانُ خارجَ دائرةِ العذاب؛ لَم يقَعْ فيهِ بَعْدُ، ولَم تُغْلَق عليه أبوابُ جهنَّم. إنَّه هنا يَمْلِكُ شيئًا مِنَ الاختيار؛ ولهذا فإنَّه في ابتداءِ مُنْطَلَقِه مِن وجهِ الخَطر يتخَفَّف مِن المُهمِّ فالأهمّ، ويتخَلّى عن العزيز فالأعزّ. إنَّه لا يُقَدِّم فدية، ولكنَّه يحلّ نفسَه مِن الرّوابط التي تَرْبِطُه بالولد، والصّاحبة، والأب والأمِّ، والأخ؛ تلك الرّوابط التي تجعل مِنْهُ ومِن هؤلاء الأقربين كيانًا واحدا أشبهَ بالجسَدِ وأعضائه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: 34 - 37].

فهنا حركَةُ فِرارٍ مِن خطَرٍ داهِم، وهنا لا يلتَفِتُ الإنسانُ إلّا إلى نَفْسِه لينجوَ بها، فإنْ نازَعَتْهُ نفسُه إلى حَمْلِ شيءٍ معَهُ؛ كانَ نظرُه إلى أعزّ شيءٍ عندَهُ، فإنْ وجَدَ فُرْصَةَ النَّجاة ضَيِّقةً؛ تَخفَّف ممّا حَمَل، ورَمَى بالعزيز دونَ الأعزّ. ثُمَّ إذا ضاقت الدّائرة بحيثُ لا تتَّسع إلّا لنَفْسِه؛ رمى بكلِّ شيء، وطلبَ السَّلامة لنفسِه، والفرارَ بجِلْدِه.

إنَّ هذه الدّقَّة البالغة غايةَ الإحْكام في تصوير الحقائقِ وانْتزاعها مِن أغوارِ النَّفس ومسارِبِ الفِكْرِ لا تكون في غيرِ القرآن الكريم، ولو ذهَب كاتِبٌ أو شاعِرٌ يُصَوِّرُ هذه الأحوالَ؛ لَما أمكنَ أن يُقارب هذا التَّصوير القرآنيّ، ولا أن يقَعَ في ظِلالِه.

نكتةُ إيثار التَّعبير بالبنين على الأولادِ، ولطيفَةُ جَمْعِهِ وإضافتِهِ إلى ضميره:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالبنينَ دون الأولاد؛ لأنَّ الابن يُفيد الاختصاصَ ومُداوَمَة الصُّحبة، والابن في كلِّ شيء صغيرٌ، فيقول الشَّيخ للشّاب: يا بُنَيّ، ويسمّي المَلِكُ رعيَّته الأبناءَ. والابْنُ يُقال للذَّكر، بخلاف الولد؛ فإنَّهُ يقَعُ على الذَّكر والأُنثى[1].

ومِنَ المعلوم أنَّ مُجْتَمَع الجاهليَّة - الذّي خوطِب أوَّلا بالقرآن - كان يُحبُّ الذُّكورَ ويَئِدُ الإناثَ؛ لاعتباراتٍ مختلّة تخصُّهم؛ ولذا فإنَّ الافتداءَ بالذُّكور على نُفوسِهم شديد، بل لا يكادُ يُتصوَّر. فكان في إيثارِ التَّعبير بالبنينِ دونَ الأولادِ في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ مراعاةٌ لتلك اللّفتَةِ النَّفسيَّة الدَّقيقة، تكشِفُ جانبًا مِن إعجازِ النَّظم القرآنيِّ الكريم.

(1) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 12.

وفي إضافةِ البَنين إلى ضميرِ المُفتَدي في قوله: ﴿بِبَنِيهِ﴾ تنبيهٌ إلى شدَّة ارتباطه الرّوحي وتعلّقه النَّفسيِّ بهم، فإذا تمنَّى لو استطاع افتداءَ نفسه بهم، وسهُل عليه تقديمُهم فداءً له - لو أمكنه -؛ كان ذلك دالًّا على أنَّ العذاب اللّاحق به يومئذ خارجَ حدودِ التَّصوّر.

التَّضحيَةُ بالإناثِ يسيرٌ عَلى نُفوسِ الكُفّار، بخلافِ البَنين؛ فإنَّهُ لا يَكاد يُتصوَّر

معنى (الواو):

(الواو) في قوله تعالى: ﴿بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ عاطفةٌ؛ حيث تُسْهِم في بيان الكِنايَةِ عَن شدَّة هول ذلك اليوم؛ إذْ تَجْمَعُ كُلَّ مَن سوى المجرم فداءً له في أمنيَّته، ولكن هيهاتَ له ذلك؛ فاليومُ يومُ العدل، ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرى.

بيانُ شدَّة هول يومِ القيامَةِ

لطيفَةُ إيثارِ التَّعبير بالصّاحبةِ على الزَّوجة:

لا يزال النَّظم الكريم يَصطفي من بين البَدائِلِ اللُّغويَّة ما يدعَمُ الكِنايَةَ عَن فظاعَةِ أهوالِ ذلك اليوم، فيُعَبِّر عن الزَّوجة بالصّاحبة؛ تأكيدًا على أنَّ طول العِشْرَةِ وامتدادَ الصُّحبة لَم يَعُد له أهمّيّة عند المجرم إزاءَ أهوالِ يومئذٍ، وذلك يكشِفُ عَن طبائعِ نفوسِ المُجْرمين، وأنَّهم لا يُبقون على شيءٍ في سبيل اسْتِنْقاذِ أنفُسِهم عند التَّورّط في المُعْضِلاتِ.

لا يُبْقي المُجْرِم على شيءٍ في سبيلِ استِنْقاذِ نفسِهِ عند التَّورّط في المُعْضِلاتِ

دلالَةُ التَّعبير بِلفْظِ الفصيلَةِ:

في التَّعبير بالفصيلَةِ إجْمالًا إيجازٌ مُبْهِر للآباء والأمَّهات والعُمومَة والخُؤولَة والجوارِ وما إليها ممَّن فُصِلَ عنهم[1]، ومَن فُصل عنهم أقربُ إليه ممَّن عاشَرَهُم عِشرة مُطلقةً. وهكذا يُعمِّم النَّظم الكريمُ بعد أن خَصَّص بنيه وصاحبَتَه وأخاه. وأصلُ "الفصيلة: القِطْعَةُ من أعضاء الجسد؛ وسُمّيت عشيرةُ الرَّجل فصيلةً؛ تشبيهًا لها بالبَعْضِ منه. وقال مالكٌ: إنَّ الفصيلة هي الّتي تُربّيه"[2].

فصيلةُ الإنسان أقرباؤه الأدنَوْنَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 347.

ومِنَ اللّافت أنَّ المجرم لا يُبدي يومئذ تَمَنّيَهُ افتداءَ نفسِه بأمِّه وأبيه؛ وذلك لدُخولِهما في الفَصيلَةِ قَصْدًا للإيجاز[1] عند بعض العلماءِ. وللدُّكتور فاضل السامرّائي لمحَةٌ رائقَةٌ هُنا؛ هي أنَّ المُجْرِم يتَحاشى ذلك؛ لأنَّ الافتداءَ يُغضب اللّه تعالى على المجرم أشدَّ الغضب؛ فنزّه المجرمُ والدَيْه عنِ الافتداءِ بِهما، وإن كانا قد طويا في قوله: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾؛ لأنَّ أباه وأمَّه ليسا أعزّ على نفسِه ولا أقرب وشيجةً إليه من بنيهِ، فالفَرْعُ غالبًا أقربُ مِنَ الأصلِ.

نكتةُ تقييدِ (فَصيلَتِهِ) بالصِّفة، وعلَّة التَّعبير بها اسمًا موصولًا:

فصيلَةُ الرَّجُلِ وعشيرتُهُ سَنَدُهُ في الشَّدائد

في تقييد (فَصيلَتِهِ) بالصِّفة ﴿ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾ مبالغَةٌ في وصفِ حالِ الافتداءِ بكُلِّ غالٍ ونفيسٍ، وأنَّ المُجْرِم إزاءَ أهوال يوم القيامة لا يَدَّخر شيئًا يظنُّ أنّه يعودُ عليه بالنَّفع إلّا وتمنّى تقديمَه فِداءً؛ استنقاذًا لنفسِه من ذلك العذاب، وهاهو يوَدُّ لو تمكّن مِن تقديمِ فَصيلَتِهِ الَّتي تُؤْويه، فماذا بَقي؟.

والتَّعبير عن صفةِ الفصيلَةِ بالاسم المَوْصول ﴿ٱلَّتِي﴾ هو الّذي هيَّأ للنَّصّ على جملة الصِّلة وإيرادِهِ فعلًا مضارعًا ﴿تُـْٔوِيهِ﴾؛ فالتَّعرُّضُ لهذا لا يتَأتّى بالاسم الصَّريح، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: وأهله الأقْرَبين، أو وقبيلته أجمعين، أو غير ذلك سِوى الموصولِ.

وفي وصف (فَصيلَتِهِ) بالموصول ﴿ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾ إلماحٌ إلى ما يَنْبَغي للمَرْءِ إزاءَ أهلِه أجمعين، فإليهم مأواهُ في النَّوازل، ولديهم أسبابُ الذَّوْدِ عنهُ وحمايَته في المُلِمّات، وفي المثَلِ العرَبيِّ الدّائع: أهلَكَ لا تهلَك؛ أي: الزم أهلكَ؛ تتَحَصَّن وتحتمي بهم ولا يَطالُك الهلاكُ.

دلالة التَّعبير بفعل الإيواء ﴿تُـْٔوِيهِ﴾، ونُكْتَةُ صَوْغِه مُضارِعا:

قوله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾ أي: تَضُمُّه انتماءً إليها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 161.

أو لياذًا بها في النَّوائب[1]، ويأوي إليها في نسَبِه، أو يأوي إليها في خَوْفِه[2]، وتَنْزِلُ فيه امرأتُه لقرابةِ ما بينَها وبينَه[3]؛ فهم مِنْهُ بمكانٍ.

استهانَةُ الكافرِ بـأهْـلِ نُـصرته وحِمايَتِه مُقابِلَ النَّجاة بنَفْسِه

ففي فِعْلِ الإيواء كنايَةٌ عَن الحمايَةِ والنُّصرة، فهُمْ فَصيلَتُه الّتي كانت تَحْميه وتَذودُ عنهُ وتَنْتَصِرُ له، فهاهو المجرم يَوَدّ بإزاء ذلك لو يَفْتَدي بهم، مِمّا يدُلُّ على فظاعَةِ الأهوال التي يُباشِرُها جرّاء استهزائه بالدّين الحقِّ ورسولِه الكريم ﷺ.

وصيغَةُ المُضارعَةِ في جملة ﴿تُؤْوِيهِ﴾ تَسْتَحْضِرُ الحالَ، كالواردِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر: 9] أي: يوَدُّ لو يَفْتَدي بأمِّه - على تفسيرِ (فصيلته) بها -، مع شدَّة تعلّق نفسِه بها إذ كانَت تُؤْوِيه. فإيثار لفظِ الفصيلَةِ وفِعْلِ الإيواءِ هُنا من إيجازِ القرآنِ وإعجازه؛ ليَشْمَلَ هذهِ المعانيَ[4].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

أهـوالُ القيامَةِ تَدْفَعُ المُجْرِمَ إلى تَـمـنّـي تـعـديد الـفِـدى بقصد النَّجاةِ، وليس هوَ بناجٍ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ عاطفَةٌ، تكشفُ عن تعدُّد الفِدَى العزيزةِ على المجرم، الّتي كانت له في الدُّنيا حصانَةً حين كان يهزأُ ويتهَكَّم بِسُؤالِه عن العذابِ. فتَجمع (الواوُ) بينَ فَصيلَتِه على ما فيها من عمومِ الأقربينَ، وبينَ مَن في الأرض جميعًا على ما فيهم من عمومِ العُقلاءِ الكائنينَ في مُحيطِه.

علَّةُ التَّعبير بالموصول (مَن) دون (ما) في قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

دلالَـةُ المَوْصولِ عـلى الـعـمـومِ والاسـتـغـراقِ بـأخْـصَـرِ لَـفْـظٍ وأوجَزِه

(مَن) في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اسم موصولٌ، وصلَتُهُ: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والمعنى: أنّ المجرم يودُّ لو يفتدي نفسَهُ يومئذ بمَن هو كائِنٌ في الأرض مِنَ الخَلقِ"[5]. فالتَّعبيرُ بـ (مَن) للتَّغليب[6]، فقد

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 93.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 259.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 161.
(5) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 259.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 31.

غُلِّب العقلاءُ على غيرِهم لشَرَفِهم. أو "ممّا يعزُّ عليه مِن أخلّاء، وقرابة، ونفائسِ الأموال ممّا شأن النّاس الشُّحُّ ببذله والرّغبة في استبقائه، على نحو قوله تعالى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: 91]"[1].

والاسمُ الموصولُ - كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ - من الألفاظِ الدّالَّةِ على العموم؛ فالموصولُ هنا لَمَّ كلَّ ما نراه في الأرض وكلَّ ما لا نراه، وكلَّ ما نَعْلَمُه وكلَّ ما لا نعلمه، وجُعِلَ ذلك كُلُّهُ في لفظٍ يسيرٍ مِن حرفين (مَنْ)، ولا يُمْكِنُ تعديدُ أسماءِ ذلك، ولا الإحاطة بها أصلًا.

مَعْنى ﴿فِى﴾ في قولِهِ: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

﴿فِى﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وفيها دلالةٌ على تَمَنّي الكافر لو يَفْتَدي بِما على الأرض جميعًا، وما في بَطْنِها مِن كنوزٍ. والمقصودُ ما فيها ومَن فيها؛ إذْ إنّ (مَن) هنا للتَّغليب[2]، فتشمَلُ العقلاءَ وغيرَهُم، وما في الأرضِ مِن كنوزٍ مِن العِظم والكثرة والتَّنوُّع ما لا يعلَمُه إلّا الله تعالى.

تمنّي المُجْرِم افتداءَه بِما على الأرض وما في بَطْنِها

وقد أوثرَ التَّقييد بالظَّرفيَّة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على الاستعلاء (على الأرض) في النَّظم الكريم؛ حيث وردَ ذِكْرُ الظَّرفيَّة في نحو مائةٍ وسبعينَ موضعًا، ولَمْ يُذكر حرفُ الاستعلاء مَعَ الأرض صراحةً (على الأرض) إلّا في أربعةِ مواضِعَ، ولها مقاماتُها الخاصّة، الجليّة في سياقاتِها.

معنى (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لتعريفِ العهد العلميِّ؛ أي: الأرض التي عهِدها المُجْرِمُ، وعاش عليها في الدُّنيا، وعرف مَن عايَش فيها،

كلُّ ما في الأرضِ مِن ثَرَواتٍ ومعادنَ نَفيسةٍ يَوَدُّ المُجْرِمُ لو يُمْكِنُه بَذْلُها فداءً لنَفْسِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 162.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 31.

وعرَف كثيرا عَن ثرواتِها؛ مِن ذهبٍ، وفِضَّة، وألماسٍ، ونحوِها مِن معادنَ نفيسَةٍ شَتّى.

فالمُجْرِم يتَمَنّى لو يَمْلِكُ ذلك كلَّه، فيَبْذُله رخيصًا في سبيل افتداء نفسِه من العذاب، وقد كان أمْرُ نجاته أيسرَ من ذلك لو آمَن واستقام، فقد جاءَه داعي الله تعالى يقول: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: 57]، لكنَّ المجرم ركِبَ حِصانَ العِناد، حتّى بلغ به العذابُ ذلك المبلغَ الشَّنيعَ.

نُكْتَةُ التَّقييد بالتَّوكيد ﴿جَمِيعًا﴾:

يـــودُّ المُـجْـرِم الـــفـــداءَ ولَـــوْ بالثَّقَلَيْنِ جميعًا

﴿جَمِيعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ في موضعِ الحالِ، وهو في المعنى توكيدٌ؛ وهو يدعم الكنايةَ الكُبْرى الكامِنَةَ وراء هذا التَّركيب كلِّه، وهي شدَّة هولِ يوم القيامة، وشدّةُ عذابِه على المجرم؛ إذْ يَزهَد المُجْرِم في كلِّ مَن كان له به صلةٌ وفي كلِّ ما كان له عندَه قيمَةٌ، وفي كل مَن وما لَم يكُن، ويتمنّى افتداءَ نفسه من عذابِ يوم القيامة بجَميعِهِم، وهي من أبلغِ الكناياتِ في هذا السّياق.

والمقصود بـ ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: "مِن الثَّقلَيْن وغيرهم، سواءٌ كان فيهم صديقٌ لا صبْرَ عنه ولا بُدَّ في كلِّ حالٍ منه، أو لا. ولمّا كان ربَّما خُصَّ ذلك بغيره؛ قال محقِّقًا لإرادة الحقيقة في معنى (مَنْ): ﴿جَمِيعًا﴾"[1].

مَعْنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾:

يـأسُ المُـجْـرِم في الآخرة مِن فداءِ نَفْسِه يُضاعِفُ الحَسْرَةَ في قلبِهِ

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ دالَّةٌ على التّراخي الرُّتبيّ، فغاية غاياتِ المُجْرِم النَّجاةُ من العذاب، ولا تَطَلُّعات له بعد ذلك مِن التَّضحية بتلك الفِدَى الثَّمينة العزيزة. وفي ﴿ثُمَّ﴾ كذلك "استبعادُ الإنجاء؛ أي: يتمَنّى المُجْرِمُ لَو كان هؤُلاءِ جميعًا تحت يدِهِ وبَذَلَهم في فداءِ نَفْسِه ثُمَّ يُنْجيهِ ذلك، ولكِنْ هيهاتَ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 397.

أن تكون له نجاةٌ"[1]؛ ممّا يَكْشِفُ عن عُمْقِ اليأس في نفسه، ويُعمِّق فيها الحسرَةَ والنَّدامة.

والعَجَبُ كلَّ العجَبِ ممَّن يستمِعُ إلى هذا البيانِ المُخيف ثُمَّ لا ينتهي عن أسبابه مِن الكُفْر بالدّين والاستهزاء بعذاب الله تعالى!.

دلالَةُ العُدولِ عن (الفاء) إلى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾:

في العُدول عن العَطْفِ بـ (الفاء) إلى العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ إيحاءٌ بـ "شدَّة اهتمام المُجْرِم بالنَّجاة بأيَّة وسيلَةٍ"[2]، وتطلُّعِه إلى ذلك، وتراخي اليأسِ في نفسِه مِن حُصولِها.

تَراخي اليأسِ من النَّجاة يتملَّك نفسَ المجرمِ؛ وذلك لتوارُدِ العقباتِ دونَها

وذلك أنّ ﴿ثُمَّ﴾ تدلّ على أنَّ المجرمَ يتملَّكه اليأسُ من النَّجاة؛ إذ يَسْتَشْعِرُ توالي العقباتِ الحوائل دونَ تحقيقِها له؛ وأنَّه لو تحقَّقت له واحدةٌ – وذلك محالٌ –؛ اسْتَشْكَلَت عليه الأخرى.

والعقبَةُ الأولى هي استحالَةُ وجودِ الفِدْيَة، ولو كانت بنيه وصاحبتَه وأخاهُ ومَن في الأرض جميعًا، وذلك قَطْعًا لا يكونُ، لكنَّها الأماني تُخالط نفسَه المأزومة هنالك.

ثُمَّ على فَرْضِ حُصولِها تَطْرَأُ له العقبة الثّانية؛ وهي قبولُ تلك الفِدْيَة منه؛ فيحصُل على النَّجاة، وتلك العقبةُ أيضًا مجرّد فَرْضٍ مبنيّ على آخرَ، ولا تُستفاد تلك الإشارةُ إلّا من سبيل ﴿ثُمَّ﴾؛ لذلك لا تصحّ (الفاء) مكانَها لأداء تلك الدَّقيقة الّتي عبَّر عنها أبو السّعود بقوله: "يودّ لو يَفتدي ثُمّ لو يُنْجيه الافتداءُ"[3].

بيانُ مَرْجِعِ الضَّمائر في ﴿يُنجِيهِ﴾:

تحقيقُ التَّماسُكِ للأسلوبِ واليقظةِ للمُتَلقّي

في جملة ﴿يُنجِيهِ﴾ ضميرا الفاعلِ والمفعول؛ أمّا الفاعلُ فيَرْجِع إلى الفِداء المفهومِ من جملة ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1575.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 162.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 31.

بِبَنِيهِ﴾، والمعنى: "ثُمَّ يُنْجيه ذلك الفداءُ"[1]. وتلخيصُ هذا الفاعلِ في ضمير الفِعْلِ (يُنْجي) يُحقق للأسلوب التَّماسُك، وللعقول المتلقّية اليَقَظَةَ إلى التِقاطِه مِن جملةِ تلك التَّفاصيل.

وأمّا ضميرُ المفعول في جملة ﴿يُنجِيهِ﴾؛ فيعودُ إلى المُجْرِم نفسِه؛ فإنَّه المعنيُّ بالنَّجاة، الوادُّ حُصولَها.

دلالَةُ التَّعبير بالإنْجاءِ، ونُكْتَةُ صوغِهِ مُضارِعًا في الفعل: ﴿يُنجِيهِ﴾:

أغْـلى غـايـةٍ وأعـلاهـا لـلـمُـجْـرمـين في الآخِرَةِ الخلوصُ مِـنَ الـعـذابِ والسَّلامةُ مِنْهُ

الإنجاءُ في جملة ﴿يُنجِيهِ﴾ يعني: سلامةَ المُجْرِم وخُلوصَهُ مِن العذاب الّذي سقَط فيه هُنالكَ في الآخرة، فيُقال: نَجا الشّخصُ من الشَّرِّ، أي: سَلِمَ وخَلص مِن أذاه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ [يوسف: 45][2]، فغايَةُ المُجْرِم مجرَّد السَّلامة، ولا مَطْمَحَ له وراءَ ذلك؛ ولا يقدِّر عذابَ الآخرة حقَّ تقديره إلّا مَن عالجَهُ.

ففي حديث آخِر أهل النّار خروجا منها؛ يقول ﷺ: "آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهوَ يَمْشي مَرَّةً، ويَكْبو مَرَّةً، وتَسْفَعُهُ النّارُ مَرَّةً، فَإذا ما جاوَزَها التَفَتَ إلَيْها، فَقالَ: تَبارَكَ الَّذي نَجّاني مِنْكِ، لَقَدْ أعْطانيَ اللّهُ شَيْئًا ما أعْطاهُ أحَدًا مِنَ الأوَّلينَ والآخِرينَ"[3]، والشّاهد أنَّ خروجه من النّار عطيَّة من الله تعالى غالية لا يرى فوقَها عطيّة: "لَقَدْ أعْطانيَ اللّهُ شَيْئًا ما أعْطاهُ أحَدًا مِنَ الأوَّلينَ والآخِرينَ"، فغايةُ غاياتِ المُجْرِم الخلوصُ والسَّلامة من العذاب.

والمُضارَعَة في الفعل ﴿يُنجِيهِ﴾ تُسهم في بيانِ حالِ المُجْرِم؛ إذ "يَوَدُّ لَو يكونُ له بذلك الفداء نجاةٌ تتجدَّد له في وقتٍ مِنَ الأوقات"[4]، ولكن هيهات!.

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 352.
(2) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نجو).
(3) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (187).
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 397.

دلالَةُ ذِكْرِ الأبْعَدينَ في الفداءِ بعدَ الأقْربين وهُم يُغنونَ عَنْهُم:

مَـن ودَّ الـفـداءَ ليَتَخَلَّص من العذابِ؛ لا يعزّ عـليـهِ مـا فَـدى وإن كـان مـلءَ الأرضِ ذهبًا

في بَدْءِ النَّظم الكريم بذِكْرِ ودِّ الكافِر الافتداءَ ببنيهِ وصاحبته وأخيهِ وفَصيلَتِه الأقربين غناءٌ وكفايَةٌ عَن ذِكْرِ الأبعدينَ ممّا في الأرض جميعًا، ومَع ذَلِكَ ذُكِرَ الأبعدون بَعْدَهُم؛ وذلك "أنَّه إنَّما يُتَوَصَّل إلى فداء أهل الأرض إذا كانَ لَهُ عليهم ملكٌ وكانوا بأجْمَعِهِم له، وإذا كانوا جميعًا له ملكًا؛ كانت شفَقَتُه على ملكِه وأولادِه واحدةً أو أكثر، فكما يَضِنّ ببذل أولاده وأن يكونوا عنه فداءً، فكذلك يَضِنُّ بالأباعِد إذا كانوا جميعًا ملكًا له؛ فلذلك استقامَ أن يَبْدَأ بذِكْرِ الأقربين قبلَ الأبعدين؛ إذْ كلُّ ذلك يَسْتَوي في التَّهويل والتَّفْزيع.

وجائزٌ أن يكون ذِكْرُ الأقربين وذكرُ أهلِ الأرض ليس على جهة الأوْلَى، ولكنَّه ذُكِر الآحادُ أوَّلا، ثُمَّ ذُكِرَتِ الجماعةُ، ثُم ذُكِرَ جماعَةُ الجماعَةِ؛ ليعلموا أنّه لا ينفَعُهم الفداءُ في ذلك اليوم، وأنَّ الّذين ودّوا الفداءَ ليَتَخَلَّصوا مِن عذاب اللّه تعالى لا يشتدّ عليهم ما فدوا وإن كان ذلك ملءَ الأرض"[1].

توجيهُ المُتشابِهِ في الآيةِ الكريمَةِ:

وفـاءُ المُتَشابِهِ اللَّفظيِّ بحقِّ المقاماتِ

لمّا كان السّياق هنا للافتداءِ؛ بدأ النَّظم الكريمُ بأعزِّهم في ذلك، بخلافِ ما في سورةِ (عبس)؛ فقال هنا: ﴿بِبَنِيهِ﴾؛ أي: لِشدَّة ما يرى. ولمّا كانت هذه الآيةُ في الفدية؛ قدّم الألصَق فالألصق، والأعلَق في الأنْسِ فالأعلق. بخلاف ما في سورة عبس؛ فإنَّها في سياق الفرار والنُّفرة؛ فقُدِّم الأبعد عَن ذلك فالأبعد من جِهَةِ النَّفع والمعرَّة[2].

بلاغَةُ الكِنايَةِ بذِكْرِ فِرار الكافِر من هؤلاء جميعًا:

هَـوْلُ الآخِـرَةِ للكافِرِ ممّا لا عَهْدَ لأحَدٍ بمِثْلِه

في ذِكر فِرار الكافر مِن هؤلاء جميعًا في قول اللّه تعالى: ﴿بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 202.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 396.

"أنَّه يَسْتَقْبِلُهم في ذلك هولٌ وفزعٌ لم يَكُن لَهُم بمِثْلِه عَهْدٌ في الدُّنيا، ولا كان خطَر ببالِهِم ذلك؛ لأنَّ المَرْءَ لا يَبْلُغ بهِ الهول في الدُّنيا مبلغًا يوَدُّ أن يفتديَ به ببنيه وصاحبته، وأخيه، وأقربائه، وجميع مَن في الأرض؛ فيكون فيه إخبارٌ عن شدَّة هول ذلك اليوم؛ ليَحْمِلَ النّاسَ على الإنابةِ إلى الله تعالى والانتهاء عمّا نهاهُم عنهُ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحُبّ والودّ:

الودّ أعمُّ معانيَ مِنَ الحبِّ

الحُبُّ - في حقِّ المخلوقِ - يكون فيما يوجبه ميلُ الطِّباع والحكمة جميعًا، والوُدُّ من جِهَةِ ميلِ الطِّباع فقط؛ ألا ترى أنَّك تقولُ: أُحبُّ فلانا وأوَدُّه، وتقول: أُحِبُّ الصَّلاة ولا تقول أودُّ الصَّلاة؟ وتقول أودُّ أنّ ذاك كان لي؛ إذا تمنيتَ وِدادَه، وأودُّ الرَّجل وُدًّا ومَودّةً، والوُدُّ والوديد، مثل الحِبِّ؛ وهو الحبيبُ[2].

ويرِدُ الودّ بمعنى محبَّة الشَّيء وتمنّي كونِه، ومن المودّة المقتضيةِ للتّمنّي قول الله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: 69].

والوَدّ والمودّة أعمُّ من الحبِّ والمحبّة، فهو يعني الحبّ المشوبَ بالتَّمنّي، ويرِدُ بمعنى الصّداقةِ ومدّ ما يُقوّيها ويُبقيها ويوسِّعها، ولذا استعمل النَّظم القرآنيّ المودّة دون المحبّة في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[3] [الرّوم: 21]

البُنوَّة والولادة:

البنوّة الدَّعْوَة، والنّسب، والولادة النّسبُ فقط

لفظ البُنوَّة أوسَعُ من لفظ الولادَة؛ لِأنَّ المَقْصود بالبنوّة: الدَّعْوَة والنّسب، فَإذا نُسِبَتْ؛ فقد تُنْسَب إلى والِدٍ وغيرِ والِد؛ ألا ترى إلى

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 202.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 122.
(3) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 457 - 458.

قَوْله تَعالى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: 177]، فنُسِب إلى السَّبيل ولَيْسَ بوالده، وكَذلِكَ قَوْلهم: ابْنُ آوى، وابْن عرس، وبَنات أوبر - للكَمْأة -، وبَنات نَعش - في النُّجوم.

ولا يحسن في شَيْء من هَذا لفظُ الوَلَد، فَمِن هَذا لم يَرَ زيدٌ رحمه الله تعالى حُجَّةً لِمَن قالَ من الصَّحابَة: إنَّ الجَدّ كالأبِ، كَما أن ابْن الابْن كالابن؛ لقَوْله سُبْحانَهُ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: 26]، و﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 40]، ولقَوْله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: 78]؛ لِأنَّ هَذا نسَبٌ وتعريفٌ، ولَو ذَكر الولادَة؛ لَكانَ لَهُم فيها حُجَّة ومتعلَّق؛ لِما تقدَّم مِن المَقْصود بِلَفْظ الوَلَد ولَفظ الابْن، وفرق ما بَينَهُما.

كما أنَّ الولد يَقع على الذّكر والأُنْثى، والواحد والجمع، بِخِلاف الابْن؛ فيختصُّ بالذَّكرِ الواحِدِ[1].

(1) السهيلي، الفرائض وشرح آيات الوصية، ص: 37.

المحتويات

الجزء التاسع والعشرون	**7**
سورة المُلك	**9**
- [الملك: 12]	10
- [الملك: 13]	16
- [الملك: 14]	27
- [الملك: 15]	35
- [الملك: 16 - 17]	47
- [الملك: 18]	59
- [الملك: 19]	64
- [الملك: 20 - 21]	75
- [الملك: 22]	92
- [الملك: 23 - 24]	102
- [الملك: 25 - 26]	115
- [الملك: 27]	124
- [الملك: 28]	133
- [الملك: 29]	141
- [الملك: 30]	149
سورة القَلَم	**155**
- [القلم: 1 - 4]	164
- [القلم: 5 - 6]	195
- [القلم: 7]	206
- [القلم: 8 - 9]	220
- [القلم: 10 - 13]	233
- [القلم: 14 - 15]	263
- [القلم: 16]	276
- [القلم: 17 - 25]	285
- [القلم: 26 - 32]	335
- [القلم: 33]	376
- [القلم: 34]	388
- [القلم: 35 - 36]	396
- [القلم: 37 - 38]	412
- [القلم: 39]	420
- [القلم: 40]	431
- [القلم: 41]	438
- [القلم: 42 - 43]	450
- [القلم: 44 - 45]	471
- [القلم: 46 - 47]	489
- [القلم: 48 - 50]	503
- [القلم: 51 - 52]	525
سورة الحَاقة	**543**
- [الحاقة: 1 - 3]	552
- [الحاقة: 4 - 8]	566
- [الحاقة: 9 - 10]	604
- [الحاقة: 11 - 12]	619
- [الحاقة 13 - 18]	630
- [الحاقة: 19 - 24]	651
- [الحاقة: 25 - 29]	669
- [الحاقة: 30 - 32]	683
- [الحاقة: 33 - 34]	691
- [الحاقة 35 - 37]	696
- [الحاقة 38 - 43]	703
- [الحاقة: 44 - 47]	719
- [الحاقة 48 - 52]	731
سورة المَعَارج	**743**
- [المعارج: 1 - 4]	751
- [المعارج: 5 - 10]	777
- [المعارج: 11 - 14]	796

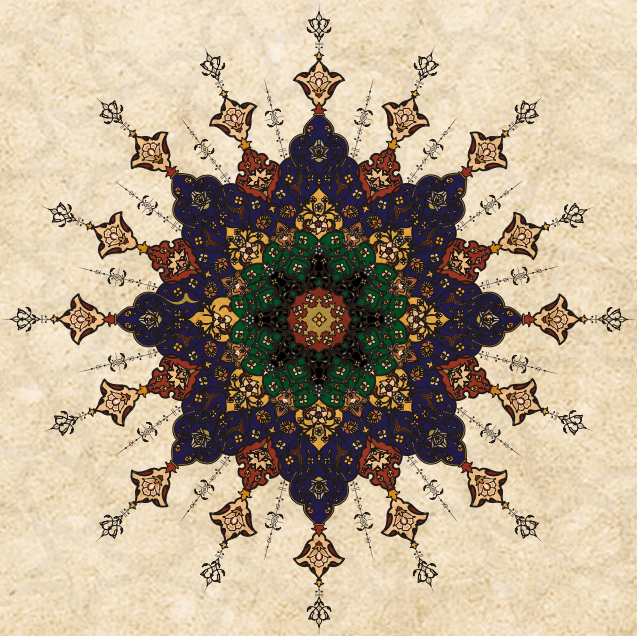

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"